المحاضرة(02): قصيدة الشعر العمودي

تحكم الشكل التقليدي في الذائقة العربية لمدة زمنية طويلة، فعبر عن مآثرها وجسد وجودها، وقد عرف عدة تحولات (الزحفات والعلل على مستوى البنية، والمجزوء والموشحات على مستوى الشكل)، إلا أنه حافظ على شكله وإطاره العام وهو نظام الشطرين، إذ انبنت القصيدة العمودية على عدد من القوانين الصارمة التي تمثل مجموع الخصائص في عرض التصور المتكامل لشكل القصيدة العمودية والمتمثل نظريا بعمود الشعر، وكل من التزم بهذه القوانين وبنى شعره عليها يكون قد أسس شعرية عربية صحيحة، ومن خرج عن إطارها وجاء شعره خرقا لها هو انتهاك.

يعد الهيكل العمودي الشكل للقصيدة القديمة تجسيدا للموروث العربي وللهوية العربية البدوية الصحراوية فكان إستراتيجية للتعبير يركز فيها على البناء السيمتري.

الاشتغال الفضائي في النص العمودي:

يمثل الشكل العمودي نظاما سيمتريا مبنيا على علاقات التوازي والتناظر والمقابلة، مما يمنحه هيئة تناسبية متسقة تلفت الانتباه، حيث «يلخص الاشتغال الفضائي في عنصرين هما: (التوازي العمودي للأبيات/ التقابل الأفقي للأشطر) هذان العنصران ينتظمان وفق شكل يجنح للاستطالة، بحيث يتم فيه رصف الوحدات المكونة أفقيا في حدود شطرين متقابلين في خط واحد، تفصل بينهما مساحة بيضاء، مشكلين نموذجا تتوالى أسفله الأبيات الأخرى موازية له عموديا، مفسحة المجال لتواز هندسي ثالث، تنتظم وفقه الأعمدة البيضاء الثلاثة الممتدة على حافات الأشطر وما بينها بشكل عمودي وهي فراغات بيضاء تنفتح على بعضها من الأسفل ومن الأعلى بواسطة عمودين أبيضين متوازيين أفقيا يحدان النص في البداية والنهاية»، وذلك يشكل هندسة معمارية لها قوامها الثابت المبنى على التناسب والترتيب.

ولا شك أن تلك ميزات قواعد الجمال في الفلسفة القديمة، إذ جمع أفلاطون أسس الجمال في الوحدة والوزن والانسجام وبالمثل جعل تلميذه (أرسطو) الخصائص الجوهرية التي يتألف منها الجمال: النظام، والتناسق (السيمترية) ، والتحدد.

وقد جمع محمد الماكري بين ظاهرة التتابع في النص الشعري والظاهرة الكونية (تعاقب الليل والنهار) في قوله: فبعد كل بيت في القصيدة بيت آخر كما أن بعد كل نهار ليلا، ثم نهارا جديدا، إن الانحدار هنا ليس نهائيا، فالحركة متجددة باستمرار، نقرأ القصيدة ونقرأ فيها الإيقاع الرتيب للزمن، فالزمان امتدادي، والأبيات تتوالي وراء بعضها برتابة أيضا،القصيدة مفتوحة أيقونيا كما أن توالي الأيام ممتد إلى ما لانهاية، بما يوحي بتلك الحركة الدورية التكرارية المتصلة بحياة الإنسان ، إذ إن الذات في النهاية لا ترسم سوى حركة وجودها.

وقد كان لقصيدة الشطرين تواجد معتبر في تجربة الشعر العربي المعاصر رغم عاصفة الحداثة التي حاولت الإخلال بالنموذج الأب (النموذج الخليلي).

النمط العمودي والقصيدة المعاصرة:

تقول إحدى الباحثات إن هذا النمط هو الذي يعبر عن الذات والواقع وعن حركة التاريخ وهو يلبس عباءة القدماء ويتكئ على عمودهم...إنه النمط الذي تعيش شاعريته بمخزونهم الثقافي في الوقت الذي يعمل الشعراء على إبداع جديد ورسم هوية جديدة لها مرتكزاتها الفنية الخاصة .

إن الأشكال الشعرية بنيات فيزيقية ذات طابع جمالي خاص، ولكنها ذات ارتباطات قوية بظروفها الخاصة وعوامل خارجية أدت إلى إنتاجها، وظلت معطياتها الدلالية ذات علاقة

وثيقة بها، ويتفق هذا النتاج الشعري مع نفسيات مبدعيه مع الشعراء ونفسيات متلقيه الذين ولدت هذه الأشعار في حجورهم وأزمانهم .

وإذا كان بعض النقاد ممن درسوا الأشكال الشعرية من حيث بناءها الموسيقي، قد سموا الشعر الحديث ذلك النتاج الشعري قبل ثورة يوليو 1952، والمعاصر يطلق على النتاج الشعري بعد تلك الثورة، وأن الحديث ارتبط من حيث النغم بالشكل الموسيقي الموروث، أما الآخر فقد اعتمد التفعيلة وحدة إيقاعية.

لكن لا بد أن تكون اللغة هي أصل الأشكال الشعرية، وهي المادة الخام والهيولى التي يصنع الشاعر منها أشكاله الفنية، حيث يتم تحرير مفردات اللغة من سياقها القديم، وإدراجها في سياق جديد أكثر كثافة من حيث الاشتغال الصوري والرؤيوي، والهدف من ذلك تحويل اللغة من السكونية إلى الحركية.

البيت في القصيدة العمودية:

إن الميزة الأساس للقصيدة العمودية هي التكافؤ العروضي للأبيات وضياع التكافؤ أضعف البيت ومنعه العديد من مكوناته

إن البيت التقليدي يمثل وحدة صوتية ، إذ يستقل كل بيت بنظام وزني واحد وينتهي بقافية

البيت وحدة نحوية، لأننا لا نجد إ نادرا قصيدة تحوي على بيتين متجاورين يكون حرف الجر في أولها والمجرور في الثاني أو المضاف..

البيت وحدة خطية كل بيت مستقل عن غيره الذي يسبقه أو يتلوه

البيت وحدة دلالية .

وترى الحركة الشعرية المعاصرة أن القوالب الشعرية قبور لمكنونات الشعراء الداخلية وجدار تتحطم أمامه تموجاته النفسية فيكبتها ولا تخرج إلا بمقدار ما رسم لها بينما يحدث العكس مع الشعر الحر ، ومن ثمة فهدف الشاعر المعاصر هو تنظيم تجربته وبالتالي إعادة الاتزان إلى الأنا.